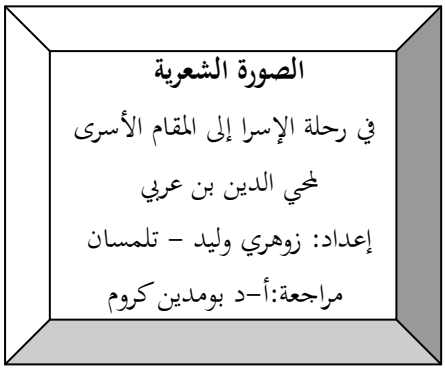

لقد استطاع المتصوفة أن يؤسسوا خطابا متميزا خارج أطر الزمان والمكان ، منفتحا على باطن الوجود؛لكن هذا الانفتاح مرهون بالقدرة على التواصل بين الأنا والكون وهو ما يتجلى في الإيحاءات والمشاهدات والمكاشفات ،ولذلك فمن الطبيعي أن تمثل المعرفة الصوفية تجربة لاحقة لتجارب الوحي النبوي ، مع أن الفارق بيِّن بين تجربة النبي وتجربة العارف ؛إذ الأولى تتضمن تشريعا جديدا، فيما تكون عند العارف بالوراثة والرؤى والأحلام و المجاهدة والترقي في سلم المقامات والتحقق بالمقام المحمدي الشريف.

قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه ، وحسابه على الله»[1] يظهر لنا أن الفهم الباطن للحديث يشير إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمر بقتال خلائق الباطن وهي الصفات الذميمة والتعلقات التي تحجب العبد عن الحق سبحانه وتعالى حتى تسلم فتتبدل صفات فاضلة ، فالإنسان لايخلو في مبدأ خلقته عن اتباع الشهوات وليس معنى التوبة ههنا تركها فقط بل إن تمامها يفرض تدارك ما مضى لأن كل شهوة اتبعها العبد تزيد ظلمة روحه وقلبه كما يزيد نفس الإنسان ظلمة على وجه المرآة، فإذا تصفى القلب وتوجه إلى الله تعالى طائعا نقيا صار قابلا للفيض، عندئذ تظهر حقيقة التوحيد ، وهو سر

قوله تعالى﴿ فاعلم انه لا اله إلا الله ﴾[2]وما لم يصل إلى الوحدانية لم يصل إلى حقيقة الوحدة التي هي ساحل بحر الأحدية ، ولا يحصل ذلك بتبديل الأخلاق فقط بل بتصفية القلب والتوجه إلى الحق والزهد في الدنيا .

فإذا تحقق العبد بالتوبة والزهد ، ودوام العمل لله وصل إلى مقام ترك التدبير والاختيار«قف عند باب دارك حتى يأخذ الحق بيدك ويمشيك فيك »[3] مقام الغاية والنهاية« حيث يزول الكيف والأين وتتضح الأسرار لذي العينين »[4]

فالسالك ذو العينين قادر على رؤية الحق في الخلق والخلق في الحق:

فأنتَ عبدٌ وأنتَ ربٌ لمنْ له فيهِ أنتَ عبدُ

وأنتَ ربٌ وأنتَ عبدٌ لمن لهُ في الخِطابِ عهدُ

فكلُ عقدٍ عليهِ شخصٌ يحله من سواهُ عقدُ[5]

من أجل ذلك فالصوفي في سفر مستمر إلى الآخرة ،هو غريب على الدوام يتنقل من حال ومن مقام إلى مقام «وشرط السالك أنه لايزال يترقى على الدوام ولا يقف مع شيء ..فلا يزال يتطور في مراتب الكمال طورا بعد طور،وكلما أدرك حالا جليلة استعد بحصولها عنده إلى منازلة ما هو أكمل منها»[6] ومن خلال هذه الأحوال والتجارب يلج العوالم الخفية وتخوض روحه اللطيفة رحلات العودة إلى العالم الطاهر بعد أن كان في عالم الوهم فالدنيا بمثابة منام مستمر «والعالم كله ظل للوجود الحقيقي للذات الإلهية»[7]، حيث يعرج العارفون الوارثون إلى السموات العلا بأرواحهم لا بأجسادهم ، ومسرى الروح يكون بحضرة الخيال الذي يجسد المعاني في صورة محسوسة؛يُعطى بها الأولياء علما بما تتضمنه تلك الصور من المعاني،.«وأما الأولياء فلهم إسراءات روحية برزخية يشاهدون فيها معاني متجسدة في صور محسوسة للخيال يعطون العلم بما تتضمنه تلك الصور من المعاني»[8] وبذلك كانت

وظيفة المعراج وظيفة معرفية بالدرجة الأولى، وذلك بالحث على مكارم الأخلاق وتغذية فكرتي الثواب والعقاب ،وتثبيت صلتهم بالكون والإنسان فالمعرفة أهم أهداف المعراج(عروج إلى مراتب أعلى من العلوم و الأسرار الإلهية).

لعل رحلة الإسرا لمحي الدين بن عربي من أبرز النصوص الصوفية التي عالجت نظرية العارفين في عروجهم إلى السماوات العلا والوصول إلى الله تعالى عن طريق المجاهدة و الرياضات الروحية.

يعد ابن عربي أحد أبرز شعراء الصوفية الذين استطاعوا أن يعرضوا الرؤية الصوفية بشكل ينم عن الموهبة والإبداع وإن كانت شهرته في الكتابات النثرية أوضح أثرا ،فقد أدرك بقوة بصيرته أن الخيال هو الوسيلة الوحيدة التي يستطيع من خلالها الوصول إلى الكشف والمشاهدة ،فبرزت كتاباته روائع لا تستجيب لمتطلبات العقل، فهو يسافر بين الأمكنة، ويعرج إلى الملأ الأعلى ويصل سدرة المنتهى وهو قابع في مكانه لايبرحه ، ومن خلال هذا المقال نحاول قراءة أشعار رحلة الإسرا إلى المقام الأسرى، الخاضعة لمنطق التخيل الخارق حيث يمكننا تلمس نزوعها الاندفاعي إلى فضاءات التحرر على شكل انفعالات اختراقية وتوتر حاد، و تخيلية مؤلمة ومفرحة في الوقت الذاته ؛مما يخفف من حدة غربته وشوقه الى محبوبه ؛أو كما عبر عنه فرويد بتفريغ الشحنات السلبية[9].

تصبح اللغة الصوفية في هذا الإطار أداة للتنفيس العاطفي والفكري ، وقد اختارها ابن عربي وسيلة للتعبير عن رغبات التحرر ،والعواطف الهائجة ، عبر صور تتلبس حلة التشخيص الرمزي وتجسيد المجرد ؛ والإبهام الفني القصد منه خلق الخصوصية لمتنه الشعري ودفع المتلقي إلى التخيل والتأويل المستمرين.

لاشك أن هذه الأساليب الشعرية قد تبدو معضلة من الوجهة الشرعية[10]؛لكننا إذا أهبنا بهذا الاستخدام الفريد للغة ، إلى المنطق الصوفي أمكننا أن ندرك أن مكالمة الأنبياء والملائكة وغيرها من المغامرات المثيرة في رحلة السالك ، هي سعي دائم بالبحث في ثنايا الروح عن السعادة الأبدية ؛ فينطلق من مجاهدات قيود الجسد والتطهر من عوالق الخطيئة المتأصلة في طبيعته العنصرية الجسدية ، لينتهي بزمان ومكان مختلفين، فينفتح له الباب واسعا للقيام برحلات مثيرة في ما مضى من الزمان، فيؤرخ لآلاف السنين الغابر ة في مسرح الخيال الخلاق ، وهي محاولات جريئة ليرفع حالات التوتر والقلق والاغتراب؛ وتأكيدا لإنسانيته الطاهرة ، ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾[11] ، يقول:

ركبُوا براق الحبّ في حرَم المنى ... وسَرُوا لقدس النُّور والبُرهَان
وقَفوا على حجر الصفا فأتاهُم ... لبن الهُدى من منزِل الفُرقَانِ
قرعُوا سماعَ جسومهِم فتفتَّحت ... أبوابُها فبدت لهم عينان
عين تبسَّم ثغرُها لما رَأت ... أبناءها في جنَّة الرِّضوان
وسما لهم عين تحدّر دمعُها ... لما رأتهُم في لظَى النِيرانِ
قرعُوا سماء الرُوح لما آنسوا ... جسما ترابِياً بلا أَرَكَان
فبدا لهم لاهُوت عيسى المجتبى ... رُوحاً بلا نفس ولا جثمان
كملَ الجمال بيوسف فتطلعوا ... لمقامِ إدريس العلى الثَاني
طَلبوا الخِلافة إذا رأوا هارون قد ... أربت منازلة على كيوان
للذات كان مسيرهم فحباهم ... بشهودِها عينا بلا كيوان
وصلوا إليه وعاينوا ما أضمرُوا ... من الغَيبِ سرِّ السر كالإعلان

سبحانه وتقدَّست أسماؤُه وعن الزِيادة جلَّ والنقصان[12]

تنقل هذه الأبيات ذات البنية السردية الحكائية عالما غير محدد الخصائص ؛هو برزخ من المعقولات العلوية وبالتالي فإن أي محاولة للتوصيف الفني من خلال معايير الشعر المحسوس تبدو غير مجدية ، ذلك أنها تتعدى الغرض الجمالي واللذة الفنية لتعبر عن تجارب ذاتية وإشراقات صوفية ؛فهذه الأبيات على سبيل المثال لا تقدم كشوفات فنية رائقة بل هي شروحات لما هو عليه الحال والمقام،بما ينقص من قيمتها الشعرية. فابن عربي رجل مشاهد لم ينل المعارف إلا بعد أن أضناه السهر والصوم فكان «شهوده هذا بمثابة اللبنة الأساسية أو الأرض الخصبة التي تنمو عليها لغته بكل مفرداتها ومصطلحاتها»[13]، فأعاد صياغة الواقع حسب ما يمليه عليه شهوده ؛ مخترقا عالم المادة؛محاولا الاتصال بمعاني النورانية، فيحول المألوف إلى مجهول والساكن ناطقا، ويجسد المعنى في صور ،ويدخل باطن المحسوس ليتصل بحقائق نعجز نحن الذين تتملكنا دنيا المادة الوصول إليها، ذلك أننا نفتقد أسس المشاهدة ، فحين يحدثنا عن عالم السمسمة وهي« أرض الحقيقة و التجليات المثالية مخلوقة من الطينة التي سوى منها الإنسان والنبات ،عالم زاخر بالحياة»[14]فإنه ينشد :

سمسمة ربّة أمثالها جلَّت فما يُدركُها سمسمة

لما رأت سرَّك يَسري لها قالت له :يا سيدي سم سمه

فحارت العَين إلى درة تقول إعجاباً إلى الشَمس مه

فأينَ ولا أين في علمه وكَيفَ ولا كيف في حكم مه[15]

يراهن ابن عربي على الشعر، بالاستعانة به في تفسير بعض الأحوال والتعبير عن بعض الانفعالات بإلباس الأبيات معاني ودلالات جديدة تخرج عن معناها الظاهر إلى

معان جديدة مختلفة ؛ فاللغة عنده تصبح جهازا معقدا من الرموز التي تتفتح عن طريق الإيحاء«إننا بإزاء الصور وهي تتفتح في سياق الإيحاء الذي يضعنا في تضاعف دلالي أشبه ما يكون بمن ينظر إلى الأشياء من وراء زجاج يمتزج على صفحته الضباب بقطرات من المطر»[16] من خلال هذه الرموز أنتج ابن عربي طريقة في التعبير وأسلوبا جديدا في صياغة الصور في حرية منعزلة عن مقولات الحس والواقع، إذ يفرز الخيال الخلاق رؤى تشكيلية جديدة تتجاذبها جدلية الانكشاف والتحجب بين الكيف الحسي للصور ودلالاتها المجردة ؛وبين الجوهر المثالي المنشود والمعطى المادي الذي تنشأ منه الصور، حيث يأخذ النص الشعري في الرحلة بعدا جديدا على مستوى البناء النصي مما يتيح للمتخيل الشعري ابتكار صيغ تعبيرية جديدة تتجاوز اللغة المألوفة والصور المرئية السطحية. وباستقرائنا لأشكال الرموز التي اعتمدها ابن عربي في الرحلة ؛ نجد أهمها تلك التي تدل على الحجب والأنوار، وهي كالآتي:

الشمس: لقد انطلق ابن عربي في توظيفه لعنصر الشمس من مبدأ وحدة الوجود ؛ المتجسدة في كل الموجودات، وماهي في حقيقتها إلا مظاهر مختلفة لعين ثابتة « فكل صورة في العالم عرض في الجوهر وهي التي يقع عليها الخلع والسلخ والجوهر واحد والقسمة في الصورة لا في الجوهر»[17] وبالتالي فإن أي ذكر للشمس ما هو إلا رمز للحكمة الإلهية المتجلية في الأكوان التي من شأنها أن تنير طريق السالكين، فالحق هو أصل النور والوجود، و سر السر ، وأصل كل إشراق وجمال، فكل أنوار الموجودات مهما سطعت وأبهرت فهي«مفتقرة في نورها إلى نور الحق تعالى الذي هو نور الأنوار»[18] ولعل احتفاء ابن عربي بثنائية الأنوار والحجب أو ما يطلق عليه :النور والظلمة؛ المحيلة على قضية الشر والخير الأخلاقية ، يعد قبسا مما بسطه السهروردي ،وهو أهم من مثل مذهب

الإشراق ونظرية الأنوار، والنظر في نشاط النفس الانفعالي بانعكاس النور عليها ، بحسب استعداد قبولها، لقد أرسى هذا المذهب أسس المحتوى الأنطولوجي لرمزية النور، وقد زاد ابن عربي فيها بمزجها بنظرية التجلّي[19]

والشمسُ في الأَكوانِ فعَّالة يثني عليهَا الغُصنُ الناضرُ[20]

وكثيرا ما يتم استخدام عنصر الشمس مقترنا باصطلاحات متداولة عند الغزلين:

وشموسُ الوَصل طَالعة وخُسوفُ الهَجر في العَدَم [21]

يمتزج رمز النور عند ابن عربي بالتجلي «وهو عبارة عن ظهور نوراني للذات الإلهية المقدسة وصفاتها، وهي في الأصل ميتافيزيقيا أفلوطين وريثتها في الإسلام الميتافيزيقيا الإشراقية،والتي أخذ بها ابن عربي»[22]

وقد استخدم ابن عربي رموزا أخرى لعملية التجلّي الإلهي مثل الشرق الذي يعبر عن التنازلات النورية والرقي الروحي ذلك أنه«موضع الظهور الكوني»[23]

ومن رموز النور المجسدة للحظات التجلي، البرق ،فهولا يريك إلا لمعانه فيكون اللمعان حجابا عليه[24]:

ورحت وقد أبدت بروقي وميضها وخُضتُ بحارَ الغَيبِ في مركَب الحِّس[25]

ومن رموز الحجب :الغرب بالقياس إلى الشرق « لأن الغرب رمز الغيب»[26] و«الأواني» ؛ فهي الظاهر وما بداخلها باطن.و «الأسرار والأستار» دلالة على الحجب التي تحُول بين النفس وبين النفوذ إلى سر الحقائق الإلهية، وأما الخسوف فهو دلالة على انحصار الأنوار حيث يجعلها الشاعر مقترنة بالهجر:

وشُموسُ الوَصلِ طَالعة وخُسوفُ الهَجرِ في العَدَم [27]

لقد استعان ابن عربي في تجسيد أشعاره بعناصر الطبيعة، كالسحب والروض والأرض والبدر والزهراء والبحر الذي يرمز إلى فيوضات الرحمة الإلهية؛ ومختلف الرموز العقائدية كآدم وإدريس ... .

وقد اختار الاستعانة بألفاظ الحس للتعبير عن التجارب الروحية ؛ والتي نجزم أنها لا تكشف لنا عن حقيقتها إلا إذا أدرجناها ضمن شبكة العلاقات النصية التأويلية ،بل نكاد نضمن أن شاعرنا يقرر أن إلغاء المحسوس والاقتصار على العقل المجرد ، يقصي الفهم العميق للتجربة العرفانية، ودليل ذلك أن اختياره للرموز الدالة على الأحوال والمقامات، لم تخرج عن البيئةالمحيطة به، لأن تشكيل الصور المتخيلة يمر عبر الحس، فهو المصدر الذي يستمد منه الخيال مادته الأولية .

كما استعان الشيخ الأكبر بالرمز المجازي ؛أي بالتعبير بطريقة إيحائية غير مباشرة ؛ ما يتيح مجالا لتعدد المعاني ؛ فقد يلجأ الشاعر إلى الموازاة بين المعنى الغزلي المباشر وبين المعنى الصوفي؛ ولو أنه لم يعمد إلى إخفاء القرينة الدالة على الاتجاه العرفاني كما نجده في ديوانه" ترجمان الأشواق " وبالتالي فإن الوقوف على الرمز وما يشار إليه في الأبيات الدالة ظاهريا على معان غزلية ؛لا يحتاج إلى كثير من الجهد لفهم اتجاهه الصحيح.

من الذي لم يَزَل يُنادي إلى الذي لم يَزَل مجيبا
أسهَرتَ عَينِي أَطلتَ بَينِي أورثتني الوَجدَ والنحيبا
صيرتنِي في الهَوى فريدا متيَّما هائما غريبا[28]

إن مبدأ الصعود الذي يسري في باطن العرفان الصوفي ، هو نفسه الذي يعطي للشعر خصوصية الخلق ،فالشعر يتغذى من الباطن الذي انفلت من رقابة العقل ،فمحقت العلاقات المنطقية بين الأشياء بعد أن أصبح الخيال سلطانا، واجتمعت الأضداد ،والتقت

المتقابلات في اجتماع فريد لا نجد له مثيلا إلا في حضرته، فتتيح قوته للشاعر تشكيل صور شعرية رمزية تسمح ببيان أصالة روحه وقد تصل بعض هذه الصور ذروة العبقرية في الفن الشعري.

ذبتُ اشتياقاً ووجدا في محبته فآه من طولِ شوقي وآه من كَمدي
ياغايَة السُؤال المأمولِ ياسنديِ شوقيِ إليكَ شديدٌ لا إلى أحدي
يدي وضعتُ على قلبي مخافة أَن يُشق صدري لما خانني جلدي
ما زَال يرفعُها طَورًا ويُخفضها حتى جعلتُ اليَد الأخرى تشدُ يدي[29]

إن العلامات والرموز التي وظفها ابن عربي في تشكيل النصوص الشعرية الواردة في الرحلة ،تكشف أننا أمام لغة مغايرة منفتحة على هاجسها الإلهي ؛ وهذا الإلهي يحضر في كل الموجودات ، على أننا نجد من خلال قصائد الرحلة تراوحا بين معنيين ، الأول: عرفاني خالص ،يعبر عنه بلسانه أوبلسان الأنبياء أو الشخصيات التي التقاها في معراجه، وأما المعنى الثاني: فحين يأخذ النص الشعري بعدا تخيليا يعبر خلاله الشاعر عن حالات الانفعال والنشوة والانخطاف والمكاشفة أو لحظات امتداده في المجهول حيث يصبح المحب والمحبوب واحداً[30]

إلهي ومولاي تمازج سرُّكم وسري ياسؤلي فعنكم أترجم
بكم أُبصِر الأشياء غيباً وشاهدا بكم أسمعُ النجوى بكم أتكَلمُ[31]

تتيح عملية قراءة هذه النصوص إمكانية المشاركة الفاعلة في إعادة الإنتاج عبر ما تحمله هذه الرموز والإشارات من أحلام وتخيلات جنونية تستدعي الوقوف العميق عند دلالاتها وإدراكها إدراكا جماليا، وذلك على اعتبار أن هناك نمطا من أنماط المنبثق من عالم الرؤى والتجليات الصوفية، والذي يعمل ضمن حدوده فقط ولعل دور المتلقي عندئذ يكون

بمحاولة دخول هذا العالم ، والتزام طرقه وإجراءاته ولغته، التي تخرج في الغالب من المعجم التداولي وتقتصر على محمول جديد يعطيها دلالاتها الخاصة في إطار النص الصوفي.

الإحالات:

القرآن الكريم برواية حفص

1-صحيح ، برواية أبي هريرة،صحيح البخاري:2946، تحقيق محمد الدين الخطيب، المكتبة السلفية القاهرة ،ط1، 1400هـ

2-سورة محمد الآية :19

3- كتاب التجليات ضمن مجموع رسائل :342 ،ابن عربي،منشورات علي بيضون ،ط2،بيروت لبنان،2005

4- الإسرا إلى المقام الأسرى:154،ابن عربي، تحقيق سعاد الحكيم،دندرة للطباعة والنشر،ط1،بيروت لبنان،1988

5--فصوص الحكم1: 45 لمحي الدين بن عربي ،تعليق أبو العلا عفيفي،دارالكتاب العربي ،ط2، بيروت لبنان1980

6- مشارق الأنوار لابن الدباغ عبد الرحمن بن محمد الأنصاري:16،تحقيق هـ-ريتر،دار الصادر ،﴿دط﴾ ،بيروت،﴿دت﴾

7- فصوص الحكم100/1

8-الفتوحات المكية:57/6 لمحي الدين بن عربي ،قراه وقدم له نواف الجراح،دار الصادر، ط1،بيروت لبنان 2004

9- إن طاقة العمل الفكري مستمدة من مصادر جنسية متسامية أو ما يعرف بالطاقة المتساوية،الأنا والهو،فرويد:75، سيغموند فرويد،ترجمة محمد عثماني نجاتي،دار الشروق،ط4،بيروت1982

10--حشد برهان الدين البقاعي في كتابه المسمى مصرع التصوف ،آراء المنكرين لفكر ابن عربي

11-سورة التين، الآية:4

12-الإسرا إلى المقام الأسرى:134

13-ابن عربي ومولد لغة جديدة:64 سعاد الحكيم ،دندرة للطباعة والنشر،ط1، بيروت لبنان،1991

14-الخيال ومفهوماته:93

15-الإسرا إلى المقام الأسرى:182

16-الخيال ومفهوماته:267 عاطف جودت نصر،مكتبة لبنان،ط1،بيروت لبنان 1998

17-الفتوحات المكية63/1

18-مشارق الأنوار:25

19-الخيال ومفهوماته:86

20-الإسرا إلى المقام الأسرى:66

21-نفسه:125

22-ابن عربي حياته ومذهبه:214

23-الكتاب التذكاري:95 إشراف إبراهيم بيومي مدكور،دار الكتاب العربي،القاهرة،1969

24-نفسه:95

25-الإسرا إلى المقام الأسرى:90

26-الكتاب التذكاري:94

27-الإسرا إلى المقام الأسرى:94

28-نفسه:138

29-نفسه:102

30-imagination creatrice,henry corbin:139 henry corbin,flammation editeur,1958,paris

31-الإسرا إلى المقام الأسرى:103